الدرس (٠٨٨) من شرح رياض الصالحين

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد للّه رب العالمين، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، صلى الله وسلم عليه وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد:

فنواصل قراءتنا في هذا الكتاب المبارك كتاب رياض الصالحين من كلام سيد المرسلين صلى الله عليه وسلم لأبي زكريا النووي رحمه الله تعالى.

يقول المصنف أبو زكريا يحيى بن شرف النووي رحمه الله تعالى:

٤٥- باب زيارة أهل الخير ومجالستهم وصحبتهم ومحبتهم وطلب زيارتهم والدعاء منهم وزيارة المواضع الفاضلة

تجمع هذه التَّرجمة جوانب عديدة تتعَلَّق بأهل الخير والفضل، من حيث مجالستهم، والحرص على مصاحبتهم، وأيضًا محبَّتهم، والعناية بزيارتهم، فهذه كلُّها جوانب مُهِمَّة ساق النَّوويُّ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ من أدلَّة الكتاب والسُّنَّة ما يشهد لذلك.

يقول المصنف رحمه الله تعالى:

قال الله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِىَ حُقُبًا ﴾ إِلَى قوله تَعَالى: ﴿ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴾ [الكهف:٦٠-٦٦].

هذه آياتٌ في سورة الكهف، فيها ذكر رحلة نَبِيِّ الله موسى عليه السلام مع فتاه يوشع بن نون إلى الخضر في مجمع البحرين، وهذه الرِّحلة تتطلَّب منه جهدًا ووقتًا وسفرًا ونصبًا، لكنَّه رحل لا لشيءٍ إلَّا للعلم والتَّعلُّم؛ لأنَّه جاء في الصَّحيح: أنَّه قام خطيبًا في قومه، فسُئِل: هل تعلم أحدًا أعلم منك؟ فقال: لا، فعاتبه ربُّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وذكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ له الخضر، وأنَّ عنده من العلم ما ليس عند موسى عليه السلام، فرحل موسى لأخذ العلم عليه، مع أنَّ

موسى أفضل من الخضر بلا خلاف، فهو من أولي العزم من الرُّسل عليه السلام، وهو كليم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

وهذا يستفاد منه: طلب الفاضل العلم على المفضول، كذلك رحلة الفاضل إلى المفضول، إذا كان عنده من العلم ما ليس عنده.

وقصَّة موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ مع الخضر قصَّة عجيبة وعظيمة ومليئة بالعبر والفوائد، وقد يطول الحديث بالكلام عنها، لكن موضع الشَّاهد من ذلك هو رحلة موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وسفره إلى الخضر، والتقاؤه به، ومصاحبته له.

وموسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ كان نبيًّا في بني إسرائيل، والخضر وهو قول لعدد من أهل العلم-: أنَّه كان نبيًّا في قومه، وله شريعته مع قومه، ولموسى عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ شريعته مع قومه، وقد قال الله تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة:٤٨].

فالشَّاهد من هذه القصَّة: فضل زيارة أهل الخير، ومجالستهم وصحبتهم، ومحبَّتهم، وكُلُّ هذه المعاني حصلت في رحلة موسى عليه السلام.

يقول المصنف رحمه الله تعالى:

وقال تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾ [الكهف:٢٨].

في هذه الآية الحثُّ على صبر النَّفس، وهو حبسها، مع أهل الفضل الَّذِين يعتنون بالصَّلوات في المساجد ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ﴾ محافظين على الصَّلاة، ولا سيَّما صلاة الفجر وصلاة العصر ، لما لهما من فضل، وأيضًا على بقيَّة الصلوات، فهم من أهل العبادة والدُّعاء، والعناية بالطاعة، فأمثال هؤلاء يحرص أشد الحرص على مجالستهم، ومصاحبتهم، وصبر النَّفس على ذلك، وهي وصيَّة الله تعالى لنبيِّه ﷺ.

يقول المصنف رحمه الله تعالى:

٣٦٠- (وعن أنس - ﷺ - قال: قال أبو بكر لعمر ﷺ بعد وفاة رسول الله - ﷺ: انطلق بنا إلى أم أيمن - ﷺ - نزورها كما كان رسول الله - ﷺ - يزورها، فلما انتهينا إليها، بكت، فقالا لها: ما يبكيك؟ أما تعلمين أن ما عند الله خير لرسول الله - ﷺ؟ فقالت: ما أبكي أن لا أكون

أعلم أن ما عند الله تعالى خير لرسول الله - ﷺ - ولكن أبكي أن الوحي قد انقطع من السماء، فهيجتهما على البكاء، فجعلا يبكيان معها. رواه مسلم.).

أمُّ أيمن هي مولاة رسول الله ﷺ وحاضنته، وخادمته في طفولته، أعتقها النَّبِيُّ ﷺ حين كبر عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ.

وفي الحديث ما ترجم له المُصَنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ من زيارة أهل الخير ومجالستهم، فكان رسول الله عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ يزور أُمَّ أيمن ويتعاهدها بالزيارة، فطلب أبو بكر من عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أن يزوراها، كما كان رسول الله ﷺ يزورها، فهذا فيه: تأسِّي الصَّحابة رضي الله عنهم وأرضاهم بالرَّسول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، ومن ذلك: تأسِّيهم به في زيارة أهل الفضل والخير.

فيستفاد منه: حرص الصَّحابة الشَّديد على زيارة أهل الخير، وتحقيق هذا المعنى العظيم من معاني الأُخُوَّة الإيمانيَّة.

وأيضًا يستفاد من هذا الحديث: عظم شأن الوحي عند الصَّحابة، فها هي أُمُّ أيمن رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا تبكي لأنَّ وحي السَّماء قد انقطع، فهَيَّجت أبا بكرٍ وعمر للبكاء فبكيا معها، فهذا يدلُّ على المكانة العظيمة للوحي في نفوسهم.

يقول المصنف رحمه الله تعالى:

٣٦١- (وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ: «**أَنَّ رَجُلًا زَارَ أَخًا لَهُ فِي قَرْيَةٍ أُخْرَى، فَأَرْصَدَ اللهُ تَعَالَى عَلَى مَدْرَجَتِهِ مَلَكًا، فَلَمَّا أَتَى عَلَيْهِ، قَالَ: أَيْنَ تُرِيدُ؟ قَالَ: أُرِيدُ أَخًا لِي فِي هَذِهِ القَرْيَةِ، قَالَ: هَلْ لَكَ عَلَيْهِ مِنْ نِعْمَةٍ تَرُبُّهَا عَلَيْهِ؟ قَالَ: لَا، غَيْرَ أَنِّي أَحْبَبْتُهُ فِي اللهِ تَعَالَى، قَالَ: فَإِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكَ بِأَنَّ اللهَ قَدْ أَحَبَّكَ كَمَا أَحْبَبْتَهُ فِيهِ**» رَوَاهُ مُسْلِمٌ[1].

يقال: «أَرْصَدَهُ» لِكَذَا: إِذَا وَكَّلَهُ بِحِفْظِهِ، وَ«المَدْرَجَةُ» بِفَتْحِ الميمِ والرَّاءِ: الطَّرِيقُ، ومعنى «تَرُبُّهَا»: تَقُومُ بِهَا، وَتَسْعَى فِي صَلَاحِهَا).

---

(١) رواه مسلم (٢٥٦٧).

هذا الحديث فيه: فضل الزِّيارة في الله، ومن أجله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، والتَّآخي فيه، والتَّحابِّ فيه، والتَّزاور فيه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وأنَّ في ذلك ثوابًا عظيمًا، فمَن أحبَّ أحدًا في الله لا يُحِبُّه إلَّا لله؛ أحبَّه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى كما أحبَّه فيه.

وقد جاء في الحديث: «**أَوْثَقُ عُرَى الْإِيمَانِ الحُبُّ فِي اللهِ وَالبُغْضُ فِي اللهِ**»(٢)، وجاء أيضًا في الحديث: «**ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ، وَجَدَ بِهِنَّ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ: أَنْ يَكُونَ اللهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وَأَنْ يُحِبَّ المَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا للهِ...**»(٣)، فلا شكَّ أنَّ هذه من معاني الأُخُوَّة الإيمانيَّة، ومن دلائل قوَّة الرَّابطة الإيمانيَّة، وأنَّها أقوى الرَّوابط وأوثقها وأعظمها، وأيضًا فيه ما يترتَّب على ذلك من الثَّواب العظيم، والأجر الجزيل.

فهذا الرَّجل زار أخًا له في الله في قريةٍ أخرى، معنى ذلك: أنَّه تتطلَّب الأمر من أجل زيارته الارتحال والانتقال من بلدٍ إلى آخر، «**فَأَرْصَدَ اللهُ تَعَالَى عَلَى مَدْرَجَتِهِ**» أي: وكَّل إلى ملك يكون في طريقه إلى تلك القرية الأخرى، «فلـمَّا أتى عليه»، يعني: أتى الرَّجل على الملك «**قَالَ: أَيْنَ تُرِيدُ؟ قَالَ: أُرِيدُ أَخًا لِي فِي هَذِهِ القَرْيَةِ. قَالَ: هَلْ لَكَ عَلَيهِ مِنْ نِعْمَةٍ تَرُبُّهَا عَلَيهِ؟**» أي: هل هناك مصلحة دنيويَّة، كتجارة ونحوها؟ «**قَالَ: لَا، غَيْرَ أَنِّي أَحْبَبْتُهُ فِي اللهِ تَعَالَى**» أي: ليس هناك سبب لهذه الرِّحلة إلَّا المحبة في الله، «**قَالَ: فَإِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكَ بِأَنَّ اللهَ قَدْ أَحَبَّكَ كَمَا أَحْبَبْتَهُ فِيهِ**» فهذا فيه: أنَّ مثل هذا العمل يثمر فوز العبد بمحبَّة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى له.

يقول المصنف رحمه الله تعالى:

٣٦٢- (وَعَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**مَنْ عَادَ مَرِيضًا أَوْ زَارَ أَخًا لَهُ فِي اللهِ، نَادَاهُ مُنَادٍ: بِأَنْ طِبْتَ، وَطَابَ مَمْشَاكَ، وَتَبَوَّأْتَ مِنَ الجَنَّةِ مَنْزِلًا**» رَوَاهُ التِّرمِذِيُّ(٤)، وَقَالَ: حديثٌ حسنٌ، وفي بعض النُّسخ: غريب).

---

(٢) رواه أحمد (١٨٥٢٤)، وصحَّحه الألبانِيُّ في صحيح الجامع (٢٥٣٩).

(٣) رواه البخاريُّ (١٦)، ومسلم (٤٣).

(٤) رواه التِّرمذيُّ (٢٠٠٨)، وابن ماجه (١٤٤٣)، وحسَّنه الألبانِيُّ.

وهذا الحديث كسابقه، فيه: استحباب زيارة الإخوة في الله، وأن تكون هذه الزِّيارة لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، أي: يتقرَّب بزيارتهم إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فإنَّ من زار أخًا له في الله، أو عاد مريضًا، نادى منادٍ: بأن طبت وطاب ممشاك، وتبوَّأت من الجنَّة منزلًا، ولئن كان مَن يعود المريض، أو يزور أخًا له في الله، لا يسمع هذا النِّداء، إلَّا أنَّ هذا النِّداء بثبوت الحديث عن رسول ﷺ حقٌّ لا ريب فيه، لأنَّ نبيِّنا عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ صادقٌ مصدوقٌ، لا ينطق عن الهوى.

يقول المصنف رحمه الله تعالى:

٣٦٣- (وَعَنْ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «إِنَّمَا مَثَلُ الجَلِيسِ الصَّالِحِ وَجَلِيسِ السُّوءِ، كَحَامِلِ المِسْكِ، وَنَافِخِ الْكِيرِ، فَحَامِلُ الْمِسْكِ: إِمَّا أَنْ يُحْذِيَكَ، وَإِمَّا أَنْ تَبْتَاعَ مِنْهُ، وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ مِنْهُ رِيحًا طَيِّبَةً، وَنَافِخُ الكِيرِ: إِمَّا أَنْ يُحْرِقَ ثِيَابَكَ، وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ مِنْهُ رِيحًا مُنْتِنَةً» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ(٥).

«يُحْذِيَكَ»: يُعْطِيكَ).

وهذا الحديث فيه: الحثُّ والتَّرغيب في اختيار الأصدقاء الصَّالحين، والرُّفقاء الطَّيِّبين، الَّذِين يعينون المرء على الخير، ويشدُّون من أزره في طاعة الله، ويأخذون بيده للبعد عن المنكرات والمُحَرَّمات، فإنَّ أمثال هؤلاء الأصدقاء يُحرص تمام الحرص على صحبتهم ومجالستهم، أمَّا المعروفين بالسُّوء والشَّرِّ، فإنَّ مصاحبتهم تسيء للمرء في دينه ودنياه، وتضرُّه في الدُّنيا والآخرة.

فوجب على المسلم أن يكون على حذر من خلطاء الشَّرِّ والفساد، وأن يحرص على مجالسة أهل الخير والفضل؛ لأنَّه كما يقال: الصَّاحب ساحب، أي يُؤَثِّر في صاحبه، ويسحبه إلى حيث هو يمارس من أعمال حسنةً كانت أو سيِّئة، ولهذا جاء في الحديث في «سنن أبي داود» وغيره: أنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال: «**الرَّجُلُ عَلَى دِينِ خَلِيلِهِ، فَلْيَنْظُرْ أَحَدُكُمْ مَنْ يُخَالِلُ**» وسيأتي عند المُصَنِّف رَحِمَهُ اللَّهُ، والكلام على معناه.

---

(٥) رواه البخاريُّ (٥٥٣٤)، ومسلم (٢٦٢٨).

يقول المصنف رحمه الله تعالى:

٣٦٤- (وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**تُنْكَحُ المَرْأَةُ لِأَرْبَعٍ: لِمَالِهَا، وَلِحَسَبِهَا، وَلِجَمَالِهَا، وَلِدِينِهَا، فَاظْفَرْ بِذَاتِ الدِّينِ تَرِبَتْ يَدَاكَ**» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ(٦).

ومعناه: أنَّ النَّاسَ يَقْصدونَ في العَادَة مِنَ المَرْأةِ هذِهِ الخِصَالَ الأرْبَعَ، فَاحْرَصْ أنتَ عَلَى ذَاتِ الدِّينِ، وَاظْفَرْ بِهَا، وَاحْرِصْ عَلَى صُحْبَتِها).

وهذا الحديث فيه: الحثُّ على انتقاء الصَّاحبة الَّتِي هي رفيقة الإنسان في عمره، أعني: الزوجة، وقد جاء تسمية الزوجة صاحبة في القرآن في مقام تنزيه الرب عن ذلك قال تعالى: {وَلَمْ تَكُن لَّهُ صَاحِبَةٌ} أي زوجة تعالى وتقدس.

فهذه صاحبةٌ صحبتها تطول إذا كتب الله له ولها عمرًا، ولا شكَّ أن تخيُّر الزَّوجة هو من تخيُّر الأصحاب؛ لأنَّها هي أكثر الأصحاب ملازمةً له، ومرافقةً له، وإذا أحسن في تـخيُّرها ديِّنةً، خلوقةً، طيِّبة المعاملة، كريمة المعاشرة؛ فإنَّه يستفيد من خلقها ودينها، وأمانتها، فهي تحفظ عليه بيته، كذلك تعينه على أمور دينه، أيضًا تقوم بتربية أولاده، وتنشئتهم على الخير، فهذه كلُّها من المعاني والآثار الَّتِي تستفاد من ذلك.

والنَّاس يتفاوتون، منهم مَن لا يريد إلَّا الجميلة فقط، ومنهم مَن يريد صاحبة المال، حتَّى وإن كانت ما كانت في السُّوء ونحو ذلك، ومنهم مَن يريد ذات الحسب، لكن المُوَفَّق مَن يختار المرأة الَّتِي هي على دين وخلق وعبادة لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فإنَّ مَن كانت كذلك، كانت عونًا لرفيقها وبعلها على كُلِّ خير، ولذا قال النبي ﷺ في تمام الحديث: « **فَاظْفَرْ بِذَاتِ الدِّينِ تَرِبَتْ يَدَاكَ** » أي: مسَّت يداك الترب يراد بذلك الإخبار عن حلول الفقر ، وهذه كلمة تقولها العرب لا تقصد معناها، فلا تقولها على إرادة معنى الدُّعاء على الشَّخص، وإنَّما يؤتى بها للحثِّ والتَّرغيب في فعل الشَّيء، ليس إلَّا.

يقول المصنف رحمه الله تعالى:

---

(٦) رواه البخاريُّ (٥٠٩٠)، ومسلم (١٤٦٦).

٣٦٥- (وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ لِجِبْرِيلَ: «**مَا يَمْنَعُكَ أَنْ تَزُورَنَا أَكْثَرَ مِمَّا تَزُورَنَا؟**» فَنَزَلَتْ: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ﴾ [مريم:٦٤]» رَوَاهُ البُخَارِيُّ(٧)).

وهذا يستفاد منه: طلب زيارة أهل الخير إلى بيت الإنسان، من أجل أن يستفيد من علمهم وخلقهم وتعاملهم.

وفيه: محبَّة الرَّسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لجبريل، ومحبَّته عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ للوحي.

وفيه أيضًا: ما دلَّ عليه قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عن الملائكة: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾ أي: أنَّ الملائكة لا تفعل شيئًا إلَّا بأمر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

يقول المصنف رحمه الله تعالى:

٣٦٦- (وَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: «**لَا تُصَاحِبْ إِلَّا مُؤْمِنًا، وَلَا يَأْكُلْ طَعَامَكَ إِلَّا تَقِيٌّ**». رَوَاهُ أَبُو دَاوُد وَالتِّرْمِذِيُّ(٨) بِإِسْنَادٍ لَا بَأْسَ بِهِ).

قوله: «**لَا تُصَاحِبْ إِلَّا مُؤْمِنًا**» فيه حثٌّ على مصاحبة الأخيار من أهل الفضل والصَّلاح والاستقامة؛ لأنَّ الصُّحبة مُؤَثِّرة والمرء على دين خليله، فهؤلاء مجالستهم تعود على جليسهم بالخير والبركة، وهم القوم لا يشقى بهم جليسهم.

وقوله: «**وَلَا يَأْكُلْ طَعَامَكَ إِلَّا تَقِيٌّ**» لأنَّ المؤاكلة والمطاعمة توجب الألفة والمَوَدَّة، وتفضي إلى الخلطة والصُّحبة، ومخالطة الأشرار والاستئناس بهم تغرُّ المرء، وتُخِلُّ بدينه، وتوقعه في الشُّبهات والشَّهوات، وتناول المُحَرَّمات.

قال الخطَّابِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «هذا إنَّما جاء في طعام الدَّعوة دون طعام الحاجة؛ وذلك أنَّ الله سبحانه قال: ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾ [الإنسان:٨]. ومعلوم أنَّ أسراهم كانوا كُفَّارًا غير مؤمنين ولا أتقياء.

---

(٧) رواه البخاريُّ (٣٢١٨).

(٨) رواه أبو داود (٤٨٣٢)، والتِّرمذيُّ (٢٣٩٥)، وحسَّنه الألبانيُّ.

وإنَّما حذَّر من صحبة مَن ليس بتقيٍّ وزجر عن مخالطته ومؤاكلته؛ فإنَّ المطاعمة توقع الألفة والمَوَدَّة في القلوب، يقول: لا تؤالف مَن ليس من أهل التَّقوى والورع ولا تتَّخذه جليسًا تطاعمه وتنادمه»[٩].

هذا ونسأل الله الكريم أن يوفقنا أجمعين لكل خير، وأن يصلح لنا شأننا كله، وأن يهدينا إليه صراطًا مستقيمًا؛ إنه سميع قريب مجيب، وصلى الله وسلم على عبده ورسوله نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

(٩) انظر: معالم السُّنن للخطَّابِيُّ (٤/ ١١٥).